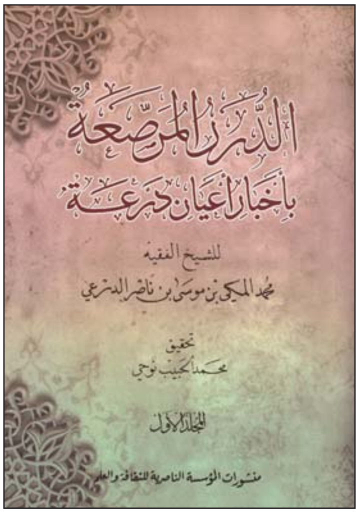

Muḥamad al-Makkī bin Mūsā bin Nāṣir ad-darʿi.- *Ad-durar al-muraṣṣaʿa bi'akhbār 'aʿyān darʿa*. Taḥqīq Muḥamad al-Ḥabīb Nūḥi (ar-Ribat: al-mu'asasa an-nāsiriyya lithaqāfa walʿilm, 2014), 2. Vols., 819p.

محمد المكي بن موسى بن ناصر الدرعي.- الدُّرر المُرصَّعة بأخبار أعيان درعة، تحقيق محمد الحبيب نوحي، (الرباط :المؤسسة الناصرية للثقافة والعلم، 2014)، في جزأين، 819 ص.

من أفضال منعرج سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي في مسار بناء المعرفة التاريخية بالمغرب وتطورها، ذلك التراكم الإيجابي الذي أنجزه الباحثون المغاربة في طبيعة المواضيع المطروقة والمقاربات المنهجية المعتمدة؛ فخلال تلك المرحلة، سلك هؤلاء اتجاها جمَع بين مستويين متكاملين، أولهما الحفر في التاريخ الاجتماعي بغرض النفاذ إلى الأرياف والعوالم النائية وحياة البسطاء ممن لم يجدوا مكانا لهم في المتن التاريخي التقليدي، واتخاذ البحث المونوغرافي سبيلا لتحقيق تراكم في هذا المجال. أما المستوى الثاني، فقد تزامن مع الأول وأضحى ضرورة ملحة له، ويتعلق الأمر بتوسيع مفهوم الوثيقة ليشمل مختلف أجناس المتون، النوازلية منها والمناقبية والرحلية وغيرها. وكانت النتيجة أن انبرت طائفة من الباحثين لتحقيق التراث المغربي المخطوط أو إخراجه في بعض الأحيان، حفظا له وتعريفا به وخدمة للباحثين في ميدان التاريخ، وهو ما برز واضحا في المنجز من قبل أعمال بعض الرواد، وكذا من خلال توجيه طلبتهم نحو هذه المسارات بحثا وتحقيقا.

ويندرج تخريج مصنف محمد المكي بن موسى بن ناصر الدرعي الموسوم بـ **الدُّرر المُرصَّعة بأخبار أعيان درعة**، الذي حققه الباحث محمد الحبيب نوحي (مراجعة الوافي نوحي)، وتقدمه المؤسسة الناصرية للثقافة والعلم لعموم الباحثين منشورا، ضمن ثمرات هذا الاتجاه؛ إذ ينفتح على متن يجمع بين التراجم والمناقب تحقيقًا، ويعتني، اختيارًا، بما أنتجته الهوامش بعيدا عن الحواضر السلطانية، ويُسهم، نتيجةً، في كتابة التاريخ المونوغرافي لدرعة من خلال توفير مادة مهمة منبثة بين ثنايا 93 ترجمة لعلماء تلك الربوع وصلحائها، وموزعة على امتداد حوالي 653 صفحة، مدبجة بتقديم المحقق (82 ص)، ومذيلة بملاحق توضيحية وفهارس مساعدة (70 ص).

Journal Indexed in Emerging Sources Citation Index (Web of Science)
Covered in *Clarivate Analytics* products and services, ISSN: 0018-1005

وتكشف المعطيات الواردة في واجهة الكتاب عن البطء الذي يسم نشر التراث المخطوط بعد تحقيقه في المغرب وما يعتريه من صعوبات؛ يُدبَج الكتاب بتقديم مؤرَخ بتاريخ أبريل 1992 لمحمد حجي مبتهجا بتحقيقه لأن جُل "ما حقق من كتب بقي مرقونا في رفوف مكتبات الكليات لعزوف الناشرين المحترفين عن إصدار المؤلفات الجامعية،" ومبشرا بأهميته في التأريخ للأطراف والعوالم النائية، ويختم تقديمه بامتنانه للمؤسسة الناصرية على اعتنائها بتراث درعة واهتمامها بنشر هذا المصنف. غير أن عملية النشر لم تتم إلا بعد مرور حوالي 22 سنة عن هذا التقديم لأسباب ارتبط جلها بغياب المحقق عن البلد مدة طويلة؛ يُوقع المحقق شكره للمؤسسة القائمة على النشر بتاريخ نونبر 2011، لينشر المصنف بعد ذلك سنة 2014.

ويبدأ محمد الحبيب نوحي تعريفه لكتاب **الدُّرَر المُرصّعة** بتقديم معطيات عن خلفية تأليف الكتاب والظروف المحيطة بها، أولها التعريف بصاحبه. ويظهر محمد المكي بن موسى بن ناصر، المزداد تقديرا من المحقق سنة 1128هـ/ 1716م، في صلب بيئة من ترجم لهم؛ فنسبه يتصل مباشرة بالشيخ محمد بن ناصر مؤسس الزاوية الناصرية بتمگروت حيث نشأ وتتلمذ وتربى. غير أن المعطيات التي توفرت للمحقق عن حياته تظل نادرة، ولم يكتشف منها إلا على ما يدل أن الرجل لم يعمر كثيرا (40 سنة حسب تقديره)، قضى معظمها منقطعا عن المخالطة إلا ما كان من تحصيل وتكوين في الدين والتصوف، قبل أن يعتكف على تدوين هذا المصنف الذي عدّه "تاريخه الكبير" (ص 32).

وتوافقت نشأة محمد المكي الناصري بزاوية عائلته في تمگروت مع الفترة التي بلغت فيها الزاوية أوج ازدهارها، حين أضحت مركزا علميا وصوفيا وازنا في المغرب كله. وفي هذا الوسط، تلقى المؤلف تكوينه في علوم الحديث والفقه واللغة والتصوف، واستكمله على يد علماء في مدن مراكش وشفشاون ومكناس وفاس. وقد خلف المؤلف تصانيف أخرى احتفى في معظمها بالزاوية ومؤسسها وشيوخها، وبدرعة وتاريخها، إلى جانب مشاريع أخرى كان مقبلا عليها لولا أن المنية وافته بسبب وباء ألم بدرعة ونواحيها، ولم يتمكن المحقق من تحديد سنة الوفاة واكتفى، مضطرا بسبب فقر المادة التوثيقية، بجعلها ما بين 1158هـ/ 1745م، وسبعينيات القرن الثامن عشر الميلادي.

ويبسط المحقق منهج المؤلف في الترجمة لأعلامه؛ فيذكر أنه رتبها على حروف المعجم، وحرص على أن يذكر في معظمها الاسم والنسب، وتاريخ الولادة والوفاة، وما مكنته مصادره من معلومات عن شيوخه وعمله وعن كراماته إن وقف عليها (32). وقدم لذلك بالإخبار عن مصادر مادته، ومعظمها من متون مكتبة تمگروت أو مما زوده بها بعض أصحابه أثناء أسفاره. وإلى جانبها، حضرت "أفواه الثقاة" من معاصريه. وسجل محمد الحبيب نوحي احترام

المؤلف لمنهجه ذاك، وأمعن في استقصاء الأخبار عن أعلامه حسب ما سمحت به مصادره، فاختلفت بذلك التراجم طولا وقصرا حسب هذا المعطى، وإن تمايزت أيضا حسب موقع المترجم له من المؤلف ودائرة اهتمامه.

ويكشف النوحي، مراعيا شروط درس التحقيق وضوابطه، عن خطته في إخراج المصنف ومنهجية تحقيقه، ويبدأ حديثه بالتأكيد على قلة عدد النسخ المتاحة من هذا المخطوط، وقد توفرت له في هذا الصدد خمس اعتمدها في المقارنة والمقابلة. ولأن نسخة المؤلف الأصلية لم تكن ضمنها، فقد اضطر إلى اعتماد النسخة التي بدت له الأقرب والأقدم. ثم إنه أرفق عمله هذا بجهد محمود في شكل بعض الكلمات وأسماء الأعلام والجغرافيا المحلية، ومكّن القارئ والباحث من هوامش توضيحية تخص تلك الأعلام والأماكن والإشارات التاريخية، مع الإحالة إلى مصادر ومراجع لمزيد من التفصيل.

واعتبارا لتأخر نشر العمل، كما ذكرناه سلفا، اضطر المحقق إلى الإشارة إلى العناوين المحققة والمنشورة ضمن لائحة ما اعتمده من المصادر المخطوطة، إلا أنه أبقى على أرقام صفحات المخطوط دون تحيينها في النسخ المنشورة مما أفقد العملية جدواها. غير أن هذا لا ينبغي أن ينسينا التأكيد على ما تكشف عنه المادة البيبلوغرافية المعتمدة في هذا التحقيق من مكابدة أبداها المحقق في هذا المجال، خاصة أن جزءا مهما مما اطلع عليه كان مخطوطا. وفي ذيل النص، قدم نوحي ملاحق في جداول ومبيانات مهمة عن توزيع المترجمين حسب معيار القرون والمواطن والأسر والمكانة المعنوية، وفي مقدمتها حجم المنتمين للأسرة الناصرية ضمن مجموع المترجم لهم من أعيان درعة، حيث تبين أنه على الرغم من عدم تجاوزهم العُشر ضمن المجموع العام، إلا أنهم فازوا بأكثر من نصف عدد صفحات الكتاب.

ويُترجم الكتاب لـ 93 عَلَما، يجمع بينهم العلم والصلاح والانتماء إلى مجال درعة. وقد أحسن محمد حجي قولا عندما وضع هذا التأليف في صف المتون التي ألفت عن الهوامش وأهلها مثل كتاب **التشوف** لصاحبه ابن الزيات التادلي، مقارنا إياه بـ "**مستفاد**" محمد بن عبد الكريم التميمي الذي اعتنى بصلحاء فاس. ولم يكن محمد الحبيب نوحي بالتالي مبالغا حين وصف كتاب **الدرر المرصعة** بالتاريخ الحافل الذي يُنصف "منطقة هامشية من البادية المغربية،" وإن كنا نعتقد أن زمن معظم تراجم هذا المصنف تناسب مرحلة صعود الحركة السعدية من هذه البادية بالضبط، واستمرار ارتباطها بالعاصمة مراكش طيلة مسار هذه الدولة وبَعدها أيضا بالنسبة للعلويين الأوائل، وهو ما يجعل أمر وضع درعة في الهامش قابلا للمراجعة.

ويعتبر محمد الحبيب نوحي أن اهتمام المؤلف بالترجمة والتأريخ لفئة اجتماعية اشترط فيها العلم والصلاح قبل كل شيء، لم يمنع من أن تصبح هذه التراجم موردا قيما لكثير من

المعلومات عن مجتمع درعة ومكوناته وعن علاقاته بغيره من المجالات، مما يجعل من الكتاب مصدرا حافلا في حقل التاريخ الاجتماعي. ومع ذلك، أولى المحقق عنايته للجانب الفكري أكثر من غيره في دراسته لهذا التصنيف، فجاء المحور الخاص بتقديم مضامين الكتاب مقتصرا على عنوانين أساسيين، وسم الأول بـ"ملاحظات عن الحياة الفكرية في درعة من خلال **الدرر**" وخصص صفحات الثاني للتعريف بنشأة الزاوية الناصرية وتطورها وذِكر بعض وظائفها.

وفي وسع المطلع على مضامين الكتاب إدراك قول المحقق وخلاصات قراءته عندما أكد أن امتداد تراجم محمد المكي بن موسى الناصري على مدى ستة قرون (من القرن VIهـ/ XIIم إلى القرن XIIهـ/ XVIIIم) يسمح بتتبع تطور الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية في بلاد درعة، وعن علاقة هذا المجال بالمركز وبالأحداث الكبرى في تاريخ المغرب. وقد سجل المحقق قلة عدد المترجم لهم من المنتمين للقرنين VII وIX هـ/ XIV وXVم، مقارنة بعدد أعلام القرنين X وXIهـ/ XVI وXVIIم، ورجح أن تكون ضآلة مصادر المؤلف عن هذه الفترة سببا في ذلك، إلى جانب عوامل تاريخية عدّدها نوحي في التدهور العام الذي ميز أوضاع الغرب الإسلامي خلال هذه المرحلة. وإن كنا نعتقد أن التفسير الأول المرتبط بقلة مادة المؤلف عن هذه المرحلة، وانشغاله بالفترة التي برزت فيها الزاوية الناصرية، وانتعشت فيها درعة ارتباطا بظهور الحركة السعدية وما تلا ذلك من تطورات مما هو قريب من عصر المؤلف أو خلاله يبدو أكثر قبولا.

ويتتبع محمد الحبيب نوحي في تقديمه لأعلام بارزة من الكتاب تطور الحياة الفكرية ومسار التصوف في درعة منذ القرن السادس الهجري إلى زمن المؤلف، وإن باقتضاب ملحوظ. وقد بدا له أن أعلام القرنين VI وVIIهـ/ XII وXIIIم المذكورين في هذا المصنف، وقد كانوا قلة (5)، عرف عنهم الزهد والصلاح. أما أعلام القرن Xهـ/ XVIم، فقد عدّد منهم 18، كان معظمهم ممن جمع بين الفقه والتصوف، وانتمى معظم هؤلاء إلى التصوف الشاذلي الجاري به العمل آنذاك في المغرب. ثم إن المحقق يقدم بعد ذلك رعيلا آخر من العلماء والعلماء الصلحاء الذين أنجبتهم مراكز درعة، وشكلوا ملامح وجهها الفكري والصوفي خلال القرن XIهـ/ XVIIم، وكان أغلبهم من أفراد الأسرة الأنصارية والناصرية، إلى جانب صلحاء تمركزوا حول زاوية تَمْكَرُوتْ.

وتمثل الزاوية الناصرية واسطة العقد في مصنف **الدرر المرصعة**، ليس فقط لأن المؤلف من أحفاد مؤسسها وحلقة من حلقات مسارها الصوفي والعالم، بل أيضا لأن الزاوية استطاعت أن تبصم تاريخ درعة بميسم خاص جمع بين الفقه والتصوف مقرونين بأدوارهما التربوية والاجتماعية والتحكيمية. ويمكن استكشاف هذه الوظائف والأدوار في تراجم الكتاب، وفي تاريخ الزاوية المتضمن بين سطورها.

ويبدأ تاريخ الزاوية الناصرية من زاويتين صغيرتين قبلها؛ "زاوية سيد الناس" في تمكروت بمقاطعة فزواطة من درعة؛ أسسها عمر بن أحمد الأنصاري سنة 983هـ/ 1575-1576م، وتحولت ولايتها إلى عبد الله بن حسين القباب الرقي (ت. 1045هـ/ 1635م)، ثم إلى تلميذه أحمد بن إبراهيم الأنصاري، وجمعت بين تدريس الفقه والتربية الصوفية إلى جانب وظائف الإيواء والإطعام، فضلا عن الأدوار الاجتماعية المرتبطة بالتدخل لحماية الناس من الغصاب ونصرة المظلوم حتى أن مقتل هذا الشيخ (ت. 1052هـ/ 1642م) كانت على يد أحد أعيان إڭني من فزواطة. أما الزاوية الثانية، فتأسست في قرية أغْلان من مقاطعة تَرْنَاتة من قبل الشيخ محمد بن أحمد بن ناصر، وإلى ابنه محمد نسبت الطريقة الناصرية كما عرفت واشتهرت بدرعة وفي بلاد المغرب في نهاية القرن XIهـ/ XVIIم.

وتلقى محمد بن محمد بن أحمد بن ناصر تعليمه في زاوية أغلان، ثم التحق بدادس إماما في مسجد إحدى قراها، قبل أن يعود إلى درعة بهيبة استمدها من علمه وورعه ومن إرث الوالد ومكانته. وقد انتقل في هذه المرحلة إلى زاوية سيد الناس بتَمْڭروتْ للتعلم من شيخها أحمد بن إبراهيم، ثم قرر الاستقرار فيها بأهله وتولي مهمة الإمامة والخطابة والتدريس في جامعها الكبير.

وتبدأ القصة عندما أوصى الشيخ أحمد بن إبراهيم الأنصاري، قبيل وفاته، تلميذه محمد بن محمد بن ناصر بكفالة بناته والعناية بأمور زاوية بَمْڭروتْ، وهو ما لم ينل رضاء بعض أفراد الأسرة الأنصارية. وبزواج محمد من حفصة الأنصارية أرملة شيخه بعد معارضة من أهلها، انتقل النفوذ إلى الأسرة الناصرية عبر هذه المصاهرة، وتمكن الشيخ الجديد من ترسيخ قدمه، وإضفاء لمسته على الزاوية بما عرف به من جمع بين العلم والتصوف والتربية. وبهذه اللمسة، اشتهرت الزاوية وتمايزت عن غيرها في كثير من ربوع المغرب الأقصى. وقد ذاع صيتها وانتشر، وتحولت بفضل ابن ناصر إلى مركز ديني وثقافي مرموق يستقبل أعدادا هائلة من المريدين والعلماء والطلبة من المناطق المجاورة (سوس وسجلماسة والأطلس المتوسط) ومن غيرها. وبفضل تنامي مواردها المالية، تمكنت من تطوير أدائها التعليمي والعلمي والاجتماعي.

وتعاقب على الزاوية مشايخ من أبناء الشيخ المؤسس وأحفاده، فاتبعوا سيرته في توسيع نفوذ الزاوية الصوفي والعلمي، ثم واجه بعضهم معارضة من قبل بعض أفراد الأسرة الأنصارية، إلى جانب الضغط الضريبي أحيانا، إلا أن ذلك لم يمنع من استمرار نفوذ الزاوية في النمو. وقد وصلت أوج توسعها في عهد الشيخ يوسف بن محمد الكبير (ت.1198هـ/ 1783م) ليصل نفوذها إلى مدن الشمال، فأضحى لها حضور بَيّن في المجال وأهله، وعند المخزن ورجاله، لعل أبرزها إعلان السلطان العلوي سيدي محمد بن عبد الله انتسابه للزاوية وطريقتها.

ويمكن للقارئ والباحث أن يتلمس في هذه "**الدرر**" وفي مقدمة المحقق، بعض وظائف الزاوية الناصرية وأدوارها في بلاد درعة، خاصة أن الأمر يتعلق بمنطقة هامشية شهدت تموجات اجتماعية مستمرة (تحركات قبائل المعقل وقبائل أيت عطا)، فضلا عن اقتصاد متسم بالندرة والقلة، وفي زمن عمه غياب الأمن وكثرة الاضطرابات. وتبعا لذلك، اضطلعت الزاوية وفروعها والمتصوفة والفقهاء المنتسبين إليها بمهام كثيرة، ومنها الإيواء والإطعام وحماية المظلوم والوقوف في وجه تعسف الولاة، وتوجيه النصح لولاة الأمر، فضلا عن التحكيم بين القبائل وحماية الطرق ومرتاديها. كما اتسم موقف الزاوية من المخزن بالاتزان، وجمع بين عدم الانسياق وراء توجهات الحكام، وبين الدعوة إلى طاعة أولي الأمر وعدم مساندة القائمين ضده.

أما أهم ما ميز الزاوية الناصرية ومنحها خصوصيتها، مقارنة بغيرها من الزوايا، فتمثل أساسا في انشغالها بالعلم ودعمها لأهله، تدريسا وتربية، ودعما ومساندة من خلال توفير بنياته والإنفاق عليه، واشتهارها بشدة الحرص على التمسك بالسنة ومحاربة البدع، وتمثيلها لبعض خصائص التصوف الشاذلي عبر سلسلة الشيخ زروق. ويستحسن أن نختم هذا العرض بقول مأثور ومشهور أورده المحقق في سياق تأكيده على الوظيفة العلمية والفكرية لهذه الزاوية، مضمنه أنه "لولا ثلاثة لانقطع العلم من مغرب القرن الحادي عشر لكثرة الفتن التي ظهرت فيه، وهم سيدي محمد بن ناصر في درعة، وسيدي محمد بن أبي بكر في الدلاء، وسيدي عبد القادر الفاسي(55)..."

حميد تيتاو
جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس